اللغة العربية

اللغة العربية لغة حية، وليست من اللغات الميتة، ولا هي من اللغات التاريخية التي انتهى عمرها الافتراضى، أو تاريخ صلاحيتها، ولا هى من لغات الشعائر والطقوس الدينية، بل إنها تشرف بأن تكون لغة الدين والدنيا معا، وهى لغة التواصل والتفاعل بين مجتمعات الدنيا عبر مساحة زمنية بعيدة لم ينقطع فيها عطاؤها، فكانت بالمعيار الزمنى من أقدم الملفات، وكانت بالمعيار التقنى من أقدرها على التواصل والبقاء، وكانت بمقياس المكان قادرة على الزيوع والانتشار بين الشرق والغرب الإسلامى بشكل لم يتهيأ لغيرها من لغات العالم القديم والوسيط، ثم كانت فوق هذا كله لغة العلم والفكر إلى جانب كونها لغة الإبداع والوجدان، وموضع التنافس فى الفصاحة والبيان.

منذ فجر العصور الوسطى، وفى ظل الحضارة العربية الإسلامية المزدهرة آنذاك كانت اللغة العربية هى آداة الثقافة والعلوم المختلفة.

لقد نجحت اللغة العربية فى استيعاب كل مصطلحات الثقافة العلمية القديمة، وتم ترجمة كل التراث اليونانى واللاتينى والفارسى إلى العربية، واستطاع العلماء العرب أن يتركوا بدورهم تراثا علميا هائلا باللغة العربية ظل مرجعا مهما للنهضة الأوروبية الحديثة.

وهاهي ذى اللغة العربية تواكب نهضة العصر، وتؤكد حيويتها، وليس أدل على هذا من سعة انتشارها، فهى تُعدُ الخامسة بعد الصينية والإنجليزية والهندية والأسبانية، والمتحدثون باللغة العربية لايقتصرون على العرب وحدهم، وإنما هى لغة الإسلام أينما وجد.

وتوجد تراجم عربية جيدة للمصطلحات العلمية وفى كثير من الجامعات العربية يتم فيها تدريس المواد العلمية باللغة العربية –

ويقول عنها أحد الشعراء (على الصياد) فى أهرام ١٩٩٢/١/١٧ م :

لغتى هى الفصحى وفى أسرارها قوميتى
فهى التى نزل الكتاب بها وفيه عقيدتى
وهى التى طارت بها فوق الكواكب أمتى
وأنا وأنت بدونها نحيا بغير هوية

إن اللغة العربية بهرت العالم بدقة تعبيراتها وجمال أسلوبها، إنها هى الأساس لفهم ديننا فهما صحيحا، وإلا فكيف نفهم فى فرائض الوضوء – مثلا – أن غسل الرجلين إلى الكعبين فرض إلا إذا عطفنا

(أرجلكم) على **(غسل الوجه واليدين إلى المرفقين)** فى الآية الكريمة : **(إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم إلى المرافق، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين)** (٦– المائدة)، وذلك بنصب **(أرجلكم)** لتكون معطوفة على **(فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق)**. وإذن ففهم الكتاب والسنة فرض لايتم إلا بفهم اللغة العربية.

وكان الصحابة- رضوان الله عليهم - يشددون على إتقان اللغة العربية، فقد مر عمر رضى الله عنه على قوم يتعلمون الرمى فيخطئون، فلامهم على ذلك، فقالوا : (إننا قوم متعلمين) بنصب ما حقه الرفع، فقال عمر (لخطؤكم فى لسانكم أشد على من خطئكم فى رميكم).

وتتميز لغة القرآن بأن كل لفظة فيه قد وقعت موقعها، وقد يكون للكلمتين معنى واحد، ولكن القرآن يؤثر كلمة على مرادفها، لأن المقام يقتضى ذلك، وعلى سبيل المثال كلمة (إصلاح) فى قوله تعالى : (يسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير) (٢٢٠- البقرة)، فكلمة إصلاح لايمكن أن يسد غيرها مسدها، واللغة العربية على عمقها واتساعها عاجزة عن أن تأتى بكلمة تقوم مقام كلمة (إصلاح) فى هذا الموضوع، لأن الإصلاح أمر جامع لما يحتاج إليه اليتيم.

وهناك تعليل طريف لنسق قرآنى فى قوله تعالى: (إن هذان لساحران) (٦٣- طه)، وذلك على قراءة تشديد (إن)، حيث قيل: لماذا لم ينصب اسم إن فيقال: (إن هذين لساحران) فكان الجواب: لما لم يؤثر العامل فى المعمول.

وفى قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: **(فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم)** (٣٦ - إبراهيم) لم يستخدم النص القرآنى طباق السلب، فلم يقابل (فمن تبعنى) (بمن لم يتبعنى، واستخدم طباق الإيجاب فى قوله: **(ومن عصانى)**، لأن طباق السلب يترتب عليه أن الحكم يشمل من بلغته الدعوة ومن لم تبلغه، ولكن قوله **(ومن عصانى)** يقتصرعلى من بلغته الدعوة وعصى، وهذا من رحمة الله بعبادة، حيث

يقول: **(وماكنا معذبين حيث نبعث رسولا)** (١٥ ـ الإسراء).

وكذلك من أسرار القرآن الكريم قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام فى سورة آل عمران الآية ٤١: **(قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا)** وفى سورة مريم الآية، **(ثلاث ليال سويا)**، ذلك أن أيام العرب وشهورهم قمرية، والليل فى الشهور القمرية يسبق النهار، ففى التاسع والعشرين من أى شهر عربى نترقب الهلال، فإذا ظهر كانت أول ليلة من ليالي الشهر التالي، ثم يعقبها أول يوم منه، وسورة مريم التى جاء فيها ذكر الليإلى المكية، وسورة آل عمران التى جاء فيها ذكر الأيام مدنية، فسورة مريم سابقة فى نزولها لسورة آل عمران، فجاء ذكر الليالي فى سورة مريم وذكر الأيام فى سورة آل عمران .

فسورة مريم سابقة في نزولها لسورة آل عمران، وبما أن الليالي تسبق الأيام فقد جاء ذكر الليالي في سورة مريم وذكر الأيام في سورة آل عمران. وقد يكون للحرف في القرآن فائدة ملفتة، وذلك حينما نلاحظ قوله تعالى في شأن الكفار: «وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها .. إلخ» بينما في شأن المتقين يقول تعالى: «وسيق الذين اتقو ربهم إلى الجنة زمرًا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها أبوابها .. إلخ» (الآيات ٧١ – ٧٣ سورة الزمر)، ففي شرأن الكفار قال فتحت أبوابها، وفي شأن المتقين قال وفتحت أبوابها، فزيدت (واو)، أي أنه في شأن الكفار كانت أبواب جهنم مغلقة وبمجرد رؤيتها لهم فتحت، أما أبواب الجنة فقد كانت مفتوحة وكانت هذه حالتها كأنها معدة ومهيأة مسبقا لاستقبال المتقين، فتكون الواو للحال كما ذهب بعض المفسرين.

وقد تكون الواو واو الثمانية -كما ذهب البعض الآخر- وذلك أن أبواب جهنم سبعة فتكون أبواب الجنة هي الثامنة، وقد وردت في القرآن الكريم آيات فيها واو الثمانية كما في قوله تعالى: «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم» (٢٢- الكهف). و كما في قوله تعالى: «**التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والنهاون عن المنكر**» (١١٢- التوبة). و كما في قوله تعالى: «**عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا**» (٥- التحريم). وحتى الرسم القرآني قد يكون لحكمة؛ ولنتأمل قوله تعالى في سورة الكهف الآية ٣٤: «قال له (صحبه) وهو يحاوره أنا أكثر منك مالًا...» وفي الآية ٣٧: «قال له (صاحبه) وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك...»، فقد جاء في كلمة (صحبه) في الآية الأولى هكذا بدون ألف بهد الصاد، بينما جاءت الكلمة في الآية الثانية (صاحبه) هكذا بالألف بعد الصاد، وقد تكون الحكمة في ذلك أن الرجلين كانا صديقين فجاءت حروف الكلمة متلاصقة متعانقة لتدل لتعبر عن إتفاقهما، ثم صارا خصمين مختلفين فجاءت الألف بعد الصاد لتشطر الكلمة نصفين معبرة عن اختلافهما، وهكذا جاء الرسم مطابقا لمقتضى الحال، وهذا من فصاحة القرآن وبلاغته، وهكذا نجد القرآن الكريم كما جاء في وصفه: **(أنه لا يَخْلِق على الرد)** أي أنه لا يبلى ولا تحدث سآمة في تكراره: **(وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه)**. تحدثت إمرأة إلى عبد الملك بن مروان فأعجب بفصاحتها وبلاغتها وقال لها: من أي البلاد أنت؟ قالت: من

بـني برمـك الذيـن أخـذت أموالهـم وقتلـت رجالهـم. فقـال لهـا: أمـا الأمـوال فهـي مـردودة عليـك، وأمـا الرجـال فقـد نفـذ حكـم الله فيهـم، أيتهـا المـرأة مـا أفصحـك ومـا أبلغـك! فقالـت: وأيـن فصاحـتي وبلاغـتي مـن فصاحـة القـرآن وبلاغتـه؟ لقـد جـاء أمـرآن ونهيـان وخـبران وبشـارتان في آيـة واحـدة، وذلـك في قولـه تعـالى: «**وأوحينـا إلى أم موسـى أن أرضعيـه فـإذا خفـت عليـه فألقيـه في اليـم ولا تخـافي ولا تحزنـي، إنّـا رادوه إليـكِ وجاعلـوه مـن المرسـلين**» (٧–القصـص). وقـد صـدرت في بلاغـة القـرآن وفصاحتـه كتـب كثـيرة لكبـار العلمـاء والفقهـاء ولـي في هـذا المجـال كتـاب متواضـع بعنـوان (بلاغـة الأمـر والنهـي في النسـق القرآنـي). ومـن البيـان الرائـع فـى القـرآن الكريـم أن تـرد بعـض الآيـات متشـابهة مـع اختـلاف المعانـي، وذلـك في قولـه تعالـي: «**وتـري الارض هامـدة فـإذا أنزلنـا عليهـا المـاء اهتـزت وربـت** ...الخ» (٥–الحـج) وقولـه تعالـي: «**وتـري الارض خاشـعة فـإذا أنزلنـا عليهـا المـاء اهتـزت وربـت**...الخ» (٣٩–فصلـت). فمـا سـر الاختـلاف بـين (هامـدة) و (خاشـعة)؟ ولمـاذا كانـت الأرض هامـدة مـرة وخاشـعة مـرة أخـري؟ لا شـك أن هـذا يعـود الـي بلاغـة القـرآن وإلـي بيانـه الرائـع، حيـث ترتبـط الكلمـة بالسـياق الـذي وردت فيـه؛ فالآيـة (٥ مـن سـورة الحـج) هـي قولـه تعالـي: «**يأيهـا النـاس إن كُنتُم في ريـب مـن البعـث فإنـا خلقناكـم مـن نطفـة ثـم مـن علقـة ثـم مـن مضغـة مخلقـة وغـير مخلقـة لنبـين لكـم ونقـر في الأرحـام مـا نشـاء إلـي أجـل مسـمي، ثـم نخرجكـم طفـلا ثـم لتبلغـوا أشـدكم، ومنكـم مـن يتـوفي ومنكـم مـن يـرد الـي أرذل العمـر لكـي لا يعلـم مـن بعـد علمـه شـيئا، وتـري الارض هامـدة فـإذا أنزلنـا عليهـا المـاء اهتـزت وربـت وأنابـت مـن مـل زوج بهيـج**». فالإنسـان يمـر بمراحـل تبـدأ

بنمو الجنين في بطن أمه، ثم يخرج طفلا، ثم يتدرج في النمو الي ان يصبح كهلا ثم شيخًا، وبعض الناس يموت قبل ان يصل الي هذه المرحلة، وبعضهم يعيش الي أرذل العمر. وما يحدث للإنسان يحدث للأرض الهامدة اليابسة الخالية من النبات والزرع فإذا نزل عليها الماء تدب فيها الحياة بالزروع الناصرة التي تبهج العين وتسر القلب، وهكذا تختم الاية بقوله: »وأنبتت من كل زوج بهيج«. وإذن فكلمة (هامدة) تتفق مع السياق الذي وردت فيه. فإذا انتقلنا الي كلمة (خاشعة) نجدها أيضًا متسقة مع السياق الذي وردت فيه؛ فالآية ٣٩ من سورة (فصلت) التي وردت فيها الكلمة هي قوله تعالي: «**ومن آياته أنك نري الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتي إنه علي كل شئ قدير**» وهذه الآية مرتبطة بالآية التي قبلها وهي قوله تعالي: «**ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كُنتُم إياه تعبدون**» ففي هذه الآية سجود وخشوع لله تعالي فكان مما يناسب السياق أن تكون الأرض خاشعة، وكما أحيا الله الأرض بالنبات بهثعد الخشوع أي التذلل الذي أستعير لحال الأرض الحديث اليابسة أحيا الإنسان بعد الموت، فالذي أحيا هذه الأرض بالنبات والزرع بعد الجدب والجفاف قادر علي احياء الانسان بعد الموت، ولذلك ختمت الآية بما يتفق مع السياق وهو قوله تعالي: «**إن الذي أحياها لمحي الموتي إنه علي كل شئ قدير**». ومن بلاغة القرآن وبيانه الرائع ما ورد من بعض الكلمات التي تقع صفات، مثل كلمة (الجميل) التي تقع صفة للصبر وللصفح وللهجر وللسراح، وذلك في المواضع الآتية: قوله تعالي:

«**فاصبر صبرا جميلا**» (٥- المعارج) وقوله: «**فصبر جميل**» (١٨- يوسف)، وقوله تعالي: «**فاصفح الصفح الجميل**» (٨٥- الحجر)، وقوله تعالي: «**واصبر علي ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا**» (١٠- المزمل)، وقوله تعالي: «**فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا**» (٢٨- الأحزاب)، وقوله: «**فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا**» (٤٨- الأحزاب). فكلمة (الجميل) في هذه المواضع اتفقت في اللفظ واختلفت في المعني؛ فالصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوي لغير الله تعالي، والصفح الجميل هو الذي لا عتاب فيه، والهجر الجميل هو الفراق الحسن والاعتزال الذي لا تذكر فيه المساوئ ولا تطول مدته عملا بقول الرسول عليه الصلاة والسلام: » لا يهجر المسلم أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وغيرهما الذي يبدأ بالسلام». والسراح الجميل هو الطلاق الذي لا ضرر فيه ولا مخاصمة ولا شجار ولا ضياع للحقوق.
ترجع أهمية اللغة – بشكل عام – إلي أنها العنصر الأساسي

ترجع أهمية اللغة – بشكل عام – إلى أنها العنصر الأساسى فى كل قومية، والمرآة التى ترى فيها كل أمة أهم مقومات شخصيتها، فاللغة القومية هى رمز العزة والكرامة، بها تنهض الأمم ويعلو شأنها، وتتحقق وحدتها، وفى غيابها تتفكك الشعوب، وتنحل الروابط، ويتضاءل الانتماء.

اللغة (أى لغة وفى أى مجتمع) هى التعبير عن روح العصر، فلا مجال للغة علمية فى عصر تسوده الخرافات والأساطير.

وترجع أهمية اللغة إلى أن الأشياء كلها تتم باللغة؛ يقول العالم اللغوى (بنيامين): «إن اللغة ليست مجرد وسيلة للتعبيرعن

الأفكار، بل هى نفسها تشكل الأفكار» ويقول (أوسكار ويلد): « إن الأفكار تولد دائما مكسوة لا عارية».

ويقول (براتراند راسل) : « يكاد النشاط الذكائى الأعلى كله يكون مسألة كلمات»، ويقول (واطسون): «إن مانسميه تفكير أليس إلا كلاما صامتا»، ويقول (هوبز): « إن المعرفة ماكانت لتأتى إلى خير الوجود بدون اللغة» وعند (لوك) أن الحاجة إلى الإتصال هى منبع اللغة، وأن اللغة تولد الفكر بدورها، وأن الناس يطلبون فى بيان أفكارهم عون اللغة أكثر مما يستعينون بالطبيعة الحقيقية المحددة للأشياء كما هى، وليست اللغة وسيلة تعبير، أو حتى وسيلة تفكير. إن (مالينوفسكى) يرى اللغة جزءً من السلوك الإنسانى، ونوعا من العمل، وليست مجرد آداة تعكس الفكر، وأن وظيفتها ليست مجرد وسيلة للتفاهم أو التوصيل.

وواقع الأمر يؤكد أنه مامن مجتمع متماسك متكامل إلا وكانت اللغة واحدة من أهم عناصر تماسكه وتكامله، ومامن حضارة إزدهرت وأثمرت إلا وكانت اللغة من أهم عناصر هذه الحضارة فى التعبير عنها، وتجميع المواطنين فى بوتقتها، ومامن ثورة إجتماعية كبرى قامت إلا ولعبت اللغة دورا ملحوظا فى التمهيد لها، وتأكيد أدوارها وتأكيدها فى النفوس، فالثورة الفرنسية – مثلا – قامت على أكتاف عدد من الأدباء والمفكرين الذين نضجت اللغة فى كتاباتهم من أمثال (فولتير) و(روسو) و(منتسيكو). والثورة الفرنسية مهدت لها روائع (بوشكين) و(دستوفيسكى) و(تشيكوف). وثورة يوليو ١٩٥٢ سبقتها أعمال ناضجة لكبار الأدباء والمفكرين المصريين من أمثال طه حسين، وعملاق الفكر العربى عباس محمود العقاد

وعميد الفكر المسرحى توفيق الحكيم وغيرهم – والثورة الجزائرية كان فى جانب كبير منها تمردا على محاولات الإستعمار الفرنسى فى القضاء على اللغة العربية واجتثاثها من جذورها فى أرض الجزائر العربية، لتفريغ أبنائها من ثقفاتهم العربية الأصيلة حتى يمكن فرنستهم.

واللغة العربية هى القوام الأساسى لكيان وطننا العربى، فلا حياة لنا بدون اللغة التى توحد أهدافنا وغاياتنا.

وإذا كانت اللغة القومية تمثل ركناً مهماً من الأركان التى تقوم عليها أية حضارة من الحضارات، فإن اللغة العربية – بصفة خاصة – تتبوأ مكانة متميزة بين لغات العالم، ويرجع ذلك إلى العلاقة العضوية بين هذه اللغة وثقافة الأمة وتراثها وعقيدتها ومرجعيتها الفكرية.

وقد كانت اللغة العربية لغة رسمية بالأمم المتحدة منذ عام ١٩٧٤ م بعد أن تشكلت لجنة وأعدت مشروع قرار بإدخال اللغة العربية ينص على أن تتحمل الدول العربية تكاليف إدخال اللغة كلغة رسمية سادسة، والترجمة منها وإليها وإصدار الوثائق بها.

وقد كان الوضع قبل ذلك على النحو التالى:

منذ إنشاء الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ م كانت اللغات الرسمية المعتمدة فيها خمس لغات هى الإنجليزية والفرنسية والروسية والصينية والأسبانية، وكان أى متحدث يستطيع أن يتحدث بلغته الأم بشرط أن يوفر لها ترجمة إلى إحدى اللغات الخمس المذكورة على نفقته.

وعندما تحدث الرئيس جمال عبدالناصر عام ١٩٦٠ م فى

الجمعية العامة للأمم المتحدة استخدم اللغة العربية، ووفر لها مترجما للغة الإنجليزية على نفقة مصر، ونقلت الترجمة من الإنجليزية إلى اللغات الأربع الأخرى الرسمية.

وكثيرون سبقوا الرئيس عبد الناصر فى التحدث باللغة العربية فى الأمم المتحدة، غير أن اللغة العربية لم تعتبر لغة رسمية معتمدة إلا فى عام ١٩٧٤ م بعد قرار اللجنة المختصة بذلك.

كانت اللغة العربية فى الماضى تحظى بعناية فائقة، وكانت تستوعب معانى العلم والأدب فى القرون الماضية، وقد اختارها الله تعالى لغة للقرآن الكريم لقدرتها وشمولها جميع المعانى التى أرادها الله عز وجل أن تصل إلى جميع البشر على اختلاف ألسنتهم لقوله سبحانه: (إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (٣-الزخرف) وقوله: (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (٢- يوسف) . ولكن اللغة العربية لم تكن بهذه الشمولية لدى الكثير من مثقفينا، فقد دأب بعض هؤلاء على إدخال الكثير من الكلمات الإنجليزية أثناء حديثهم ظنا منهم أن ذلك يدل على مستواهم الثقافى والاجتماعى والعلمى، بينما العكس هو الصحيح وهو ضعف مستواهم الأدبى فى لغتهم الأم. فيجب على مثقفينا أن يغرسوا فى نفوس أبنائنا وأجيالنا القادمة الحب والاعتزاز بلغتهم ولغة دينهم الحنيف، لا أن يزرعوا فى نفوسهم أن التحدث بالإنجليزية مظهر رقى وحضارة، وأنه يجذب المستمعين.

إن لغتنا محرومة من الحنان والولاء، وفى هذا الجو لايجيدها متعلم، ولايرغب فى إجادتها، ويجد المنتصر لها عزوفاً وعنتاً يملؤه حسرةً وأسفاً، فيغدو بتمسكه بها كالقابض على الجمر.

واللغة العربية اليوم تعيش فى مجتمعها فى غربة نفسية تلقى الزهد من القريب والإعراض من الحبيب والمنافسة من الغريب، والمحاربة من العدو اللدود.

للعربية الفصحى ثلاث أزمات:

- أزمتها الذاتية من جراء نحوها وصرفها .
- أزمتها الداخلية مع العامية المتجددة من طول التحدث الدائم بها، ومن كثرة دورانها على الألسنة.
- أزمتها الخارجية مع جميع اللغات الأخرى وأصحابها من أهلها وأهلنا.

لقد كان شوقى يقول: إننى لا أخشى على العربية إلا من (عامية) بيرم التونسى، لأنها مزيج جميل من الفصحى والعامية المصرية، مع أن شوقى هو الأب الشرعى للعربية الفصحى.

إن اللغة العربية لغة دينية نزل بها القرآن الكريم، فهى بهذا الاعتبار فى الأوج رفعة ومقاما وهى لغة قومية منذ ارتبطت مصر بها فى القرن الأول الهجرى، السابع الميلادى.

وهى لغة سياسية تربط بيننا وبين العالم العربى.

ومفتاح إجادة هذه اللغة هو حفظ القرآن الكريم فى الطفولة المبكرة لتقويم اللسان، وإثراء الوجدان، ومن أجل هذا ينبغى نشر الكتاتيب، ويمكن تسميتها المدارس أو رياض الأطفال القرآنية لإرضاء الأمزجة التى تفزع من اسم كتاتيب، المهم الهدف النبيل.

والإخوة المسيحيون يسمون مدارسهم مدارس الأحد، وغير هذا

من الأسماء الدينية، والإسلام هو الدين الذى انفرد بالاعتراف بالأديان السماوية قبله، ولكننا نرفض إحباط وزارة التربية والتعليم للغة العربية والتربية الدينية، ولاتتورع أن تنص فى إحدى نشراتها على أنه (لايجوز تناول التربية الدينية عن طريق حفظ القرآن الكريم).

لقد ألغت الوزارة فى سنة ١٩٩٨م كتبا مهمة كانت مقررة بحجة أنها (تقتل براءة الأطفال). واليهود يدرسون فى مدارسهم (التلمود)، ولم نسمع بقتل براءة الأطفال.

واليابان تقصر التعليم فيما يتعلق باللغة على اللغة اليابانية حتى سن السابعة عشرة بدون منافس من لغة أخرى، ثم يتاح تعليم اللغات الأجنبية لمن يرغب بعد هذه السن، حرصاً على أن يتعلم الأطفال والصبية لغتهم الأم بدون شريك فى نضارة السن، والقدرة على التحصيل، وقد قلدت أمريكا اليابان، وقلدها الغرب، الكل يحرص على تعليم اللغة الأم بدون شريك فى بكارة الإحساس والسن والرغبة فى التعليم، ولكن وزارة التعليم عندنا تفتح مدارس لتعليم اللغات الأجنبية للأطفال المصريين، وتخسف درجة اللغة العربية، مع أن هذه اللغة تتألف من أفرع هى : النحو والأدب والنصوص والقراءة والإنشاء والإملاء والخط، وهذا مما يصرف الاهتمام إلى المواد التى لها درجات أعلى وليس لها أفرع كثيرة.

لقد سنت مصر القانون رقم ١١٥ لسنة ١٩٥٨ م لمنع استعمال الأسماء الأجنبية وكتابتها بطريقة مستفزة على لافتات المحال التجارية، ولكن هذا القانون لم يُنفذ، ولم يلق استجابة تُذكر.

وإذا كانت اللغات الأجنبية تُعدُ ضرورة فى العصر الحاضر وانطلاقا من المقولة المشهورة: (من تعلم لغة قوم أمن مكرهم)، فلابد لهذا الإنسان العربى أن يتقن قبل ذلك لغته العربية إتقانا كاملا، إذ ينبغى أن نهتم بالطلاء قبل البناء.

وليكن لنا مثل من الدول الأجنبية ذاتها، فالقانون الفرنسى – مثلا – يحرم استيراد كلمات من لغات أخرى لها مقابل فى اللغة الفرنسية، ونحن – للأسف – برغم أن لغتنا غنية بمفرداتها ومترادفاتها نهملها ونستعين بكلمات من لغات أخرى لها مرادف عندنا أكثر غنى وتعبيرا.

إن لغتنا العربية ليست فى حاجة إلى بدائل، ولكنها فى حاجة لمن يخلصها من الركاكة والضحالة والسطحية، وينقذها من لغة هؤلاء الذين يريدون هدم قواعدها وأصولها، واللغة قادرة على احتواء بعض الكلمات الأجنبية بشرط ألا تكون بديلا عنها، فالكلمات الأجنبية يمكن أن تدخل فى صلب التعبير الأدبى فتكون جزءا من بنائه وخلية من خلاياه بحيث لايشعر القارئ أو السامع أن هناك شيئا غريبا وسط البناء التعبيرى، أو بمعنى آخر تصبح الكلمات الأجنبية داخل النص العربى كلمات عربية، وفى القرآن الكريم مايشهد لذلك ففى بعض آياته كلمات تنتمى إلى أصل أجنبى مثل: (سندس – أستبرق – أرائك – أكواب – أباريق)، ولكنك حين تقرأ الآيات التى وردت فيها هذه الكلمات لاتكاد تشعر بأنها غريبة عن النسق القرآنى، لأن هذا النسق استوعبها وأزال عجمتها.

وهناك تحديات تواجه لغتنا، وتعمل على إعاقتها عن تأدية

رسالتها وتحرمنا من الاستمتاع بحلاوتها وجمالها، والمشكلة الحقيقية التى تواجه اللغة تتمثل فى الإعلام المنطوق، خاصة قضايا الإعراب وضبط الكلمات.

وجميع شعوب العالم تعتز بلغاتها؛ فعلى سبيل المثال أصدرت اليابان تشريعا يقضى بمنع تعليم أى لغة أجنبية للأطفال تحت ١٥ سنة، وتبعتها أمريكا بإصدار تشريع يمنع الأطفال قبل سن ١٤ سنة من تعليم اللغات الأجنبية، وأصدرت فرنسا فى عام ١٩٩٣م قانونا يلزم محطات التليفزيون الفرنسية بأن تخصص ٤٠٪ من برامجها للمواد الفرنسية، كما أصدرت فى عام ١٩٩٤م (قانون اللغة) الذى يمنع المواطن الفرنسى من استخدام الكلمات أو العبارات الأجنبية بدلا من الفرنسية، ويشمل هذا القانون كل الوثائق والمستندات والإعلانات المسموعة والمرئية، بل إن الحكومة الفرنسية اتخذت إجراءات قبل بداية عصر العولمة لحماية اللغة الفرنسية عندما أصدرت عام ١٩٧٥م قانون اللغة الفرنسية الذى يقضى بتغريم كل من يُسئ أو ينتهك قواعدها نطقا وكتابة.

وقد أصدر حاكم الشارقة قرارا يقضى بإلزام ذوى الشأن بكتابة الإعلانات واللافتات الخاصة بهم باللغة العربية السليمة.

ولعل هذه الاهتمامات المتنوعة للمحافظة على اللغة القومية والاعتزاز بها فى معظم دول العالم تدفع الأمهات والآباء عندنا إلى أن يربوا أبنائهم على الاعتزاز بلغتنا القومية بدلا من آفة انتشار الكلمات الأجنبية بشكل مثير فى حياتنا وتعاملاتنا.

وهناك آفة أخرى أصابت لغتنا العربية وهى انتشار الألفاظ العامية فى أجهزتنا الإعلامية والثقافية مقروءة أو مسموعة أو

مرئية، وقد بلغ من إعلاء شأن هذه العامية أن خصصت لها جائزة الدولة التقديرية فى الأدب، مع أن عمالقة الأدب لايعترفون بهذه العامية ولا بأدبها، يقول عميد الأدب العربى د/ طه حسين :

(لا أدب إلا أدب الفصحى، والذين يستخدمون العامية ليسوا واقعيين – كما يدّعون – وإنما هم عاجزون)

وفى اللغة العربية المفروض أن تتبع الصفة الموصوف، ولكن لكل قاعدة شواذ، فهناك كلمات من صفات الأنثى ولا تلازمها علامة التأنيث، فيقال: امرأة مرضع، وامرأة حامل، وامرأة حائض، وامرأة عجوز ....إلخ.

كما تلاحق علامات التأنيث الصفات التى على وزن (فعول) مثل: امرأة صبور، امرأة ولود، وامرأة ودود ....إلخ. وكذلك الصفة التى على وزن (فعيل) بمعنى (مفعول) مثل: امرأة جريح، وناقة ذبيح، ...إلخ. وهناك أمثلة يستوى فيها المذكر والمؤنث وهى وزن (مفعال) يقال: رجل مهزار وامرأة مهزار، ورجل معطاء وامرأة معطاء، ووزن (مفعيل) مثل رجل معطير، وامرأة معطير، ورجل مسكير وامرأة مسكير، ووزن (مفعل)، مثل: رجل مغشم وامرأة مغشم.

وكذلك المصدر المقصود به المبالغة، يقال رجل عدل وامرأة عدل.

والغلبة فى اللغة للمذكر والأصل فيها التذكير، قال تعالى للسيدة مريم: (واركعى مع الراكعين) (٤٣ آل عمران)، وقال: (وكانت من القانتين) (١٢–التحريم).

والصحيح الآن هو قولنا: السيدة رئيس التليفزيون، والسيدة وكيل الوزارة، وفلانة أستاذ علم الاجتماع ... إلخ .

إن اللغة والفكر وجهان لعملة واحدة، والعلاقة بينهما علاقة عضوية، يرتفعان معا، ويهبط أحدهما حين يهبط الآخر، وعلى هذا فإن الازدهار الفكرى والتقدم، ولكن – للأسف – أصبح المثقف العربى والمتخصص فى اللغة والأدب تصدمه أخطاء الكثيرين فى بنية الكلمة وإعرابها، كما تصدمه مناهج اللغة التى تتضمن فروعا متعددة كان من الأفضل أن تُقسم إلى مادتين رئيسيتين: إحداهما تُسمى الدراسات اللغوية، والأخرى تُسمى الدراسات الأدبية، هذا بالإضافة إلى اعتماد خطة ذات جوائز تشجيعية للطلاب على ممارسة القراءة الجهرية، وتخصيص بعض الوقت لقراءة الصحف والمجلات قراءة جهرية، وتعميم مسابقات الخطابة والتعبير الارتجالى وتشجيع إقامة الفرق المسرحية فى جميع المدارس، وتدريب الطلاب على أداء مشاهد تمثيلية مبسطة باللغة الفصحى.

ومن المهم أن يخصص امتحان شفوى تُعطى له درجات على الأداء السليم والقراءة الجهرية، ودار العلوم فى الماضى حينما كانت لاتفتح أبوابها إلا لأبناء الأزهر، وحينما لم يكن لها شريك فى اسمها كانت مهدا للغة الفصحى، حتى قال فيها الشاعر على الجارم :

وجدت فيك بنت عدناته دارا ذكرتها بداوة الأعراب

وكانوا يقولون: تموت اللغة العربية فى كل مكان وتحيا فى دار العلوم، كان ذلك فى الماضى، ولا أدرى ماذا يقولون الآن، ولكنى أورد عبارة للأستاذ المرحوم ثروت أباظة فى جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠٢/١/١٤م ص ١١ يقول فيها: « لقد هدم حكم الطغيان اللغة العربية بما أسموه تطوير الأزهر، وضمهم دار العلوم ـ التى لم يكن يدخلها إلا الحافظون للقرآن ـ إلى الجامعة، وانتفى عن

المنتسبين إليها اليوم هذا الشرط، وأصبحت اللغة العربية على مانرى اليوم من هزال فى مدرسيها أو معلميها على السواء».

ومن الألقاب المعروفة للغة العربية أنها (لغة الضاد) أى اللغة التى ينطق فيها حرف الضاد نطقا واضحا، بينما تنطقه اللغات الأخرى (دالا)، وكثير من شبابنا – للأسف – ينساقون وراء تيار اللغة الأجنبية فينطقون الضاد دالا ، فيقولون – مثلا – (جدول الدرب) بدل (جدول الضرب)، وهكذا كل كلمة فيها ضاد تنطق دالا.

ولم يقتصر الأمر على حرف الضاد، ولكننا نجد حروفا أخرى تفقد هويتها على ألسنة الشباب، فالطاء تصير تاء، فيقولون – مثلا– (المجتمع التبكى) بدل (المجتمع الطبقى) وكأن لفظ التبكى فيه رقة وتشير إلى التحضر والمدنية، أما لفظ (الطبقة) ففيه غلظة تدل على التخلف والتأخر. ويا ليت المربين يعلمون التلاميذ كيف ينطقون، وكيف يتكلمون بوضوح، ويا ليتهم يخصصون دروسا للنطق وللخطاب، لأن وضوح اللغة يبعث على تأمل أسرارها وجمال تركيبها ودقة معانيها. وقد عبّر حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية تصور دورها ومكانتها وتنعى حظها، وتشكو مانالها من أبنائها فقال:

وسعتُ كتاب الله لفظا وغاية
وماضقتُ عن آي به وعظات
فكيف أضيقُ اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات ؟!
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن

فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى

وتبلغ هذه الشكوى ذروتها حين يقول:

أرى كل يوم بالجرائد مزلقا
من القبر يُدنينى بغير أناةِ
وأسمع للكُتّاب فى مصر ضجة
فأعلم أن الصائحين نُعاتى

أيهجرُني قومي – عفا الله عنهمُ – إلى لغة لم تتصل برواة ! !

سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى
لُعاب الأفاعي فى مسيل فراتِ
فجاءتْ كثوب ضم سبعين رقعةً
مشكلة الألوان مختلفاتِ

والواقع اللغوى الذى صوره حافظ ليس كواقعنا الآن، ولكنه صورة شديدة التبسيط له، فلم تعد المسألة مجرد (لوثة الإفرنج) – وهى تسمية الشاعر للمفردات والمصطلحات الأجنبية – وإنما هى الآن أخطر بكثير، إنها فى صميمها قضية تعلم اللغة العربية أساسا، ومدى نجاحنا فى ذلك، والثابت الذى لايقبل الشك هو الفشل الذريع مهما تحدث المسئولون والخبراء عن العصرية والمنهجية والتحديث والتطوير، وهى قضية موقف المجتمع كله ممثلا فى سلطات الدولة إزاء تفشى المسميات الأجنبية لكل شئ فى حياتنا بدءا بالطعام والشراب والملبس والفنادق والمؤسسات والشركات والمتاجر، وانتهاء بالقرى السياحية.

ولاشك أن حب اللغة والسيطرة عليها هو الذى يقف صامدا أمام تيار العولمة الجارف الذى تسعى فيه الدول القوية لفرض سيطرة لغتها على الآخرين، ففى أمريكا وفرنسا وبريطانيا واليابان تمنع هذه الدول تعليم أبنائها لغة ثانية إلا بعد أن يتشربوا لغتهم أولا، وفى ماليزيا لايُعين خريج الجامعة إلا بعد أن يتشرب لغته أولا، وقد كان آباؤنا الأوائل يهتمون باللغة العربية إلى درجة التقديس، فقد قيل: رحم الله عبدا أصلح الله من لسانه، وقيل: تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد فى المروءة.

واللغة العربية غنية بمفرادتها ومترادفاتها، ومع ذلك يتجرأ عليها أبناؤها الناطقون بلسانها والناهلون من فيضها، ويتهمونها بالفقر والقصور، ويطالبون بتفجيرها وإقامة لغة جديدة على أطلالها، فبعضهم يطالب باستخدام الحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية زاعما أن هذا هو المدخل إلى العالمية، ويترك بعضهم مئات التعابير الجميلة ليستشهد بغرائبها ووحشيتها زاعما أن هذه هى اللغة العربية، فهل استخدم أديب أو شاعر فى هذا العصر الحديث ألفاظا أو كلمات غريبة أو وحشية؟ وهلى ينبغى تبعا لذلك أن نحرق المراجع والكتب التى تتضمن تلك الألفاظ الغريبة؟ إن كلمة (الدرفس) أى الراية لم يستخدمها شاعر فى العصر الحديث، وقد استخدمها البحترى فى قصيدته السينية المعروفة التى مطلعها:

صنتُ نفسى عن ما يدنس نفسى
وترفعتُ عن جدا كل جبس
وتماسكتُ حين زعزنى الدهر
التماسا منه لتعسى ونكسى

إلى أن يقول فى وصف التماثيل على جدران إيوان كسرى:

والمنايا مواثل وأنو شر
وان يزجى الصفوف تحت الدرفس

والتى عارضها شوقى بقصيدة طويلة مطلعها:

اختلاف الليل والنهار يُنسى
اذكرا لى الصِبا وأيام أنسى

فهل تلغى تلك القصيدة الرائعة لأنها تضمنت بعض الكلمات الغريبة ؟

وهناك قاموس أسمه (الألفاظ الكتابية) لعبدالرحمن بن عيسى الهمذانى يحفل بمئات من هذه الألفاظ كمترادفات لم يعد أحد يذكرها فى كتاباته شعرا أو نثرا، فهل نحرق مثل هذا الكتاب العظيم الفائدة لنقيم على أنقاضه كتابا يتضمن لغة جديدة ؟

إن التيارات الفكرية المعادية للغة العربية فى العصر الحديث ماتركت سلاحا إلا وشهرته فى وجهها، ولاذنب لها إلا أنها لغة القرآن الكريم والقومية العربية.

ومن خصائص اللغة العربية دلالة بعض الحروف على المعانى، لأن الحرف الواحد فى العربية له قيمة تعبيرية، وفى كتاب الخصائص جـ٢ صـ١٦٣ يقول ابن جنى: وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف تشبه أصواتها بالأحداث المعبرعنها بها وترتيبها، وتقديم مايضاهى آخره، وتوسيط ما يضاهى أوسطه، سوقا للحرف على سمة المعنى المقصود والغرض المطلوب، كلفظ (بحث)، فالباء تشبه فى لفظها خفقة الكف على الأرض، والحاء (للبحة فى الصوت) تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئاب إذا غارت فى الأرض، والثاء للنفث والنبش فى التراب، وبالوقوف مع ابن جنى فيما ذهب إليه نجد أن حرف الحاء إذا وقع آخر الكلمة دل على الظهور والامتداد، ومن أمثلة ذلك: (باح بالسر – لاح القمر – فاح الطيب – صاح الرجل – شرح الشعر – صرح بما نيوى – فضح أمره).

وحرف (الشين) إذا وقع فى أول الكلمة دل على التفريق، مثل: (شتت شملهم – شطر الشئ – شاع الخبر – شق الثوب).

وحرف (التاء) إذا جاء ثانى الكلمة دل على القطع، مثل: (بت الحبل – بتر العضو).

وحرف (الثاء) إذا جاء ثانى الكلمة دل على الانتشار، مثل: (بث الخبز – بثق النهر، أي إنفجر ماؤه).

وأحرف (السين والصاد والضاد والطاء) إذا كانت ثانى الكلمة دلت على القطع، مثل: (حسم – حصد– قضى– قط – قطف).

حرف (الغين) إذا وقع فى أول الكلمة دل على الظلمة والخفاء، مثل: (غابت الشمس – غاص الماء– غطس السباح – غسق الليل – غشية الأمر – غمرة الماء – غرس – غرق – غفا– غبن –غسن – غطى).

حرف (النون) إذا كان فى أول الكلمة دل على الظهور والبروز، مثل: (نفث – نفخ – نبت – نبذ – نزف – نزع – نجم – نشأ – نما – نطق – نهض).

حرف (القاف) يتضمن معنى الاصطدام أو الانفصال ويقترن بحدوث صوت شديد، مثل: (قد – قطع – قرع – قذف – دق – شق – طق – عق – طرق).

حرف (السين) إذا وقع فى أول الكلمة يفيد الليونة والسهولة، مثل: (سهل – سلم – سل – سلى – سال – ساد – ساب – ساق – سما – سعد – سكن).

تلك بعض خصائص وسمات لغتنا العربية ، وصدق الشاعر حين تخيل اللغة العربية تتحدث عن نفسها فتقول:

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن

فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى ؟

obeikan.com